المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغاربي

أولاً: مدخل عام إلى المدائح النبوية:

تُعدّ المدائح النبوية أحد أهم الأغراض الشعرية في التراث العربي–الإسلامي، وقد نشأت منذ عهد الرسول ﷺ مع شعراء مثل حسّان بن ثابت، ثم تطوّرت عبر العصور مع ازدهار الثقافة الصوفية، وبلغت ذروتها في المغرب الإسلامي عبر عدة تجارب محلية مميزة.

تعريف المدائح النبوية:

هي قصائد شعرية تُمدح فيها شخصية النبي محمد ﷺ، خصاله، سيرته، معجزاته، وشفاعته، وتُتّخذ وسيلة للتعبير عن المحبة والارتباط الروحي بالنبي.

أغراضها الأساسية:

تمجيد الرسول ﷺ، وإظهار التديّن والتعبّد، وإحياء المناسبات الدينية (المولد، الإسراء والمعراج، الهجرة)، إضافة إلى التزكية الروحية والتعبير عن التجربة الصوفية.

ثانياً: المولديات:

تعريفها:

المولديات هي قصائد أو أناشيد خاصة باحتفالات المولد النبوي الشريف، تُنشد غالباً جماعياً مصحوبة بإيقاعات تقليدية، وتتميز ببنية فنية خاصة تجمع بين الشعر والغناء والأداء الطقوسي.

خصائصها العامة:

- لغة بسيطة أقرب إلى الوجدان الديني الشعبي.
- حضور الإيقاع والتكرار
- توظيف القصص والسيرة النبوية.
- أداء جماعي في الزوايا والطرق الصوفية.

ثالثاً: السياق الثقافي للمغرب العربي:

يضم المغرب العربي: المغرب – الجزائر – تونس – ليبيا – موريتانيا. وقد تميز هذا الفضاء بثلاث سمات مؤثرة:

أ- قوة الحضور الصوفي (الطرق: القادرية، التيجانية، الشاذلية، الرحمانية...).

ب- تنوع اللغات والأوزان (العربية الفصحى، العربية الدارجة، الأمازيغية، الملايوية في موريتانيا).

ج- تاريخ طويل من الاحتفال بالمولد النبوي على مستوى الدولة والزوايا والشعب. وهذا ما جعل المدائح والمولديات تراثاً روحياً وجمالياً خاصاً بالمنطقة.

رابعاً: دور الطرق والزوايا في تطور المدائح المغاربية:

1- في المغرب:

- انتشار المديح والسماع الصوفي في الزوايا مثل الناصرية والدرقاوية والجزولية.
- بروز شعراء مثل ابن عباد الرندي، ابن مشيش، عبد الرحمن المجدوب.
- ظهور السماع المغربي الذي يمزج بين الشعر واللحن.

2- في الجزائر:

- قوة الطريقة القادرية والرحمانية.
- شهرة المدائح القسنطينية و"البشارية."
- الشعراء مثل ابن قنفذ القسنطيني ومحمد بن علي السنوسي.

3- **في تونس:**

- انتشار المدائح بالأسلوب الزيتوني والطرق البكوشية والعيساوية.
- شعراء مثل أحمد بن موسى، والشاذلي القيرواني.
- تطور فنّ "المدائح الجماعية" في الاحتفالات الرسمية.

4- في موريتانيا:

- حضور قوي للشعر الحساني (المديح باللهجة الحسانية).
- شعراء مثل الشيخ سيديا الكبير والشنقيطي.

خامساً: السمات الفنية للمدائح والمولديات في الشعر المغاربي:

السمات اللغوية:

- المزج بين الفصحى والدارجة والأمازيغية.
- استعمال ألفاظ السيرة والحديث الشريف والقرآن الكريم.
- حضور الأساليب البلاغية: الطباق، السجع، الجناس.

السمات الإيقاعية:

- الاعتماد على البحور الخفيفة مثل الرمل والمتدارك.
- استعمال الزجل الملحون في المغرب والجزائر.
- القصائد القصيرة ذات التكرار الإنشادي.

السمات الموضوعية:

- السيرة والمعجزات (مولده، شق الصدر، الإسراء).
- صفاته الخُلقية (الرحمة، الشفاعة، الجمال المحمدي).
- الدعاء والتوسل والرجاء.

سادساً: نماذج نصوص مغاربية:

- **من المغرب:** قصيدة البوصيري بتوظيف مغربي:

أصــلُ الهدايــةِ نــورٌ منــك مُنتشــرٌ يــا مــن بــهِ اهتــدى الماشــي علــى الأثــرِ

- **من الجزائر:** المديح القسنطيني:

صـــــلّي يـــــا ربّ علـــــى طـــــه نـــــور الهـــــادي ومـــــلاذ الجـــــاه

- **من تونس:** المولدية الزيتونية:

يـــــا رســـــول الله يـــــا ســـــندي فيـــــك آمـــــالي ومقصـــــدي

- **من موريتانيا: (حساني)**

نبّينـــا زيـــن مـــالُ كيـــفُ زيـــنُ للبـــرّ كامـــل وهـــو مـــزَيّن

سابعاً: وظائف المدائح والمولديات في المجتمع المغاربي:

- الوظيفة الروحية: تربية الذوق الديني وحضور الذكر.
- الوظيفة الاجتماعية: توحيد المجتمع في الاحتفالات الدينية.
- الوظيفة الثقافية: الحفاظ على الفنون المحلية كالملحون والسماع.
- الوظيفة التعليمية: تعليم السيرة والشمائل بطريقة فنية.

خاتمة:

إنّ المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغاربي ليست مجرد نصوص دينية، بل تراث فني– روحي شكّل وجدان الشعوب المغاربية عبر قرون، وامتزج فيها الأدب بالشعر والموسيقى والروح الصوفية، مما يجعلها مادة غنية للبحث الأدبي والفني والأنثروبولوجي معاً.